الدرس الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

معاشر الأحبة الكرام، بين أيدينا رسالة قيمة ونافعة في بابها ،بابها الاستغناء بالقرآن ،علما وعملا، عبادة وتقربا ،طاعة وتزكية، خلقا وأدبا ،عقيدة وشريعة، بالقرآن وحي الله جل وعلا، وتنزيله الذي جعل الله سبحانه وتعالى هداية العباد وفلاحهم وسعادتهم في الدنيا لا تنال إلا به.

وهو كتاب يغني العبد الغنى التام ويسعده السعادة التامة، ويهديه الهداية التامة، هذا الباب العظيم فيه هذه الرسالة؛ الاستغناء بالقران، وأصلها مؤلف إلى الآن مفقود للإمام الحافظ بن رجب الحنبلي رحمه الله تعالى، وهو مشهور رحمه الله تعالى بجودة تصانيفه وحسن جمعه وجمال تبويبه وترتيبه وحسن عنايته بالأحاديث والآثار، وحسن فهمه لها واستنباطه منها، يعرف ذلك من يطالع كتبه رحمه الله تعالى. وهذا اختصار لكتاب ابن رجب رحمه الله تعالى وتجريد له.

والتجريد اختصار، مثل ما قال الزبيدي في اختصاره للبخاري قال : " التجريد الصريح مختصر الجامع الصحيح "، فسمى اختصاره لكتاب الامام البخاري تجريدا، ولم نقف على الأصل لكونه مفقودا لمعرفة هذا التجريد وأيضا مكانته ووفائه، لكنه على كل حال حفظ شيئا عظيما وقدرا نفيسا من هذا الكتاب العظيم المبارك؛ كتاب الاستغناء بالقران للإمام ابن رجب رحمه الله تعالى.

الاستغناء بالقران، هذا أمر غاية في الاهمية، وما أحوجنا في هذا الزمان الذي كثرت فيه الصوارف والصوادّ والشواغل والملهيات، ما أحوجنا في هذا الزمان الى أن نعود الى القران، ولعل عقد هذه المجالس في مدارسة هذه الرسالة معونة، لعل في ذلك معونة لنا على تحقيق هذا المطلب الجليل، ولهذا ينبغي أن نستحضر في هذا الجلوس هذا المقصد؛ أن يكون جلوسنا في مدارسة هذا الكتاب معونة لنا على تحقيق هذا المطلب العظيم الذي هو الاستغناء بالقران. كثرت الأمور التي أشغلتنا وألهتنا وأوقعت قلوبنا في الغفلة، فهذا الكتاب يعد من أعظم النصيحة لنا لنعود إلى القرآن قراءة وفهما وعملا بالقرآن؛ **{ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۗ }**.

والاستغناء بالقرآن أي أن يكون المرء غنيا به مكتفيا، لأن فيه غُنية وفيه كفاية، يقال غَنِي واستغنى واغتنى أي صار غنيا، الاستغناء بالقرآن أي أن يكون هذا القرآن فيه غنية لنا وكفاية، فنستغني به دون أن تلهينا هذه الدنيا عنه، أو أن تشغلنا عن العناية به والاهتداء بهداياته .

وتأمل رعاك الله في هذا المعنى قول الله عز وجل في أواخر سورة الحجر **{ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧) لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ }**، **{ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ }**، يقول الامام ابن سعدي رحمة الله عليه " أي لا تعجب إعجابا يحملك على إشغال فكرك بشهوات الدنيا التي تمتع بها المترفون واغتر بها الجاهلون، واستغن بما آتاك الله من المثاني والقرآن العظيم " " واستغن بما آتاك الله من المثاني والقرآن العظيم "؛ أي أن هذا القران فيه غنية وكفاية لمن أقبل عليه، وقال رحمه الله في قول الله عز وجل **{ إِنَّ فِي هُذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ }** قال: " أي يتبلّغون به في الوصول إلى ربهم وإلى دار كرامته..." إلى أن قال: " فمن لم يغنه القرآن فلا أغناه الله ، ومن لم يكفه فلا كفاه الله " وقد قال الله عز وجل **{ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ }**.

الحاصل أن القرآن فيه الغنية والكفاية، وفيه هداية العباد وصلاح البشر وسعادتهم في الدنيا والآخرة، فينبغي على كل عبد ناصح لنفسه أن يقبل على هذا القرآن، أن يقبل على هذا القرآن العظيم وأن يهتدي بهداه، وأن يجاهد نفسه على عمارة اوقاته بالقرآن تلاوةً وتدبرا وعملا بهذا القرآن العظيم.

هذا الاستغناء بالقرآن الذي هو موجب سعادة المرء وفلاحه في الدنيا والآخرة لا بد فيه من بذل جهد مع القران؛ فهمًا وتدبرا وعملا، بحيث يكون دائم العناية بالقران. يقول ابن تيمية رحمه الله وهو يتكلم عن قول الله تعالى **{ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ }** فذكر شيئا من خصال هؤلاء وصفاتهم العظيمة، فذكر من ذلك شأنهم مع القرآن فقال " وأما في باب فهم القران فهو دائم التفكر في معانيه والتدبر لألفاظ واستغنائه بمعاني القران وحِكَمه عن غيره من كلام الناس، وإذا سمع شيئا من كلام الناس وعلومهم عَرَضه على القرآن، فإن شهد له بالتزكية قَبِله وإلا رده، وإن لم يشهد له بقبول و لا رد وقفه، وهمته عاكفة على مراد ربه من كلامه ".

نسأل الله الكريم أن ييسر لنا حسن الانتفاع ومن ثَمّ حسن الارتفاع، فان الانتفاع بالقرآن رفعة للمرء في دنياه وأخراه.

ونشرع مستعينين بالله تبارك وتعالى في قراءة هذه الرسالة.

[الحمد الله رب العلمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى اله و صحبه أجمعين.

أما بعد: فاللهم اغفر لنا ولشيخنا وللمسلمين والمسلمات.

قال المصنف رحمه الله تعالى:

" الحمد الله الذي منّ على المؤمنين وبعث فيهم رسولا من أنفسهم **{ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ }** صلى الله و سلم عليه وعلى آله وأصحابه الهادين المهتدين وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن كتاب الله تعالى هو الهدى والنور وشفاء ما في الصدور، أودعه من بديع الحكم ما يغني عن حكمة كل حكيم، وعَلّمه من اصطفاه من عباده و فوق كل ذي علمٍ عليم، و شرح به الصدور و بيّن به أحوال البعث و النشور، وجعله المعجزة الكبرى التي أوضح بها الدلالة و أقام به براهين التوحيد والرسالة وما يجب له سبحانه وتعالى من صفات الكمال والجلال والجمال، وما يستحيل عليه سبحانه وتعالى من الصاحبة والولد وكل نقص ومحال، و ذكّر به و حذّر، وبشّر به و أنذر بأحوال الأمم السالفة، وأن العاقبة للمتقين والدائرة على الظالمين، وغير ذلك مما لا يحيط بعلمه إلا منزّله الحكيم العليم، و الله أعلم بما ينزل، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. "]

شرح الشيخ :

بدأ المصنف رحمه الله تعالى رسالته هذه بهذا الاستهلال المشعر بمضامينها ومحتوياتها، فحَمِد الله عز وجل على هذه النعمة العظيمة والمنّة الجسيمة والعطيّة الكبيرة التي هي مبعث النبي الكريم عليه الصلاة والسلام؛ **{ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ }**. فهذه منّة عظيمة يمتنّ فيها الرب جل وعلا على العباد بمبعث هذا الرسول عليه الصلاة و السلام وإنزال هذا القرآن عليه هداية للبشر وصلاحا للعباد، و لهذا ينبغي أن يعلم أن هذه المنة هي أكبر المنن، بل هي أصلها وأساسها.

فالله جل وعلا منّ على العباد بمبعث هذا الرسول الذي مهمته إبلاغ كلام من أرسله، فالرسول لا يأتي بشيء من نفسه **{ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ }**؛ يبلغ كلام من أرسله؛ قال **{ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ }** اَي

يزكيهم بتلاوة الآيات، وهذا فيه أن القران هو كتاب التزكية وأنه لا زكاة للقلوب إلا بالقرآن؛ لا يمكن أن تزكو القلوب وأن تطيب وأن تصلح وتستقيم إلا بهذا القرآن، والنبي عليه الصلاة والسلام عندما كان يزكي القلوب؛ أي يدلّها على ما فيه زكاتها، كان يتلو عليهم آيات الله ليزكيهم بها، و لهذا التزكية للقلوب إنما تنال بهذا القران، تلاوةً لآياته وتدبرًا لمعانيه وهداياته. **{ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ }**؛ الكتاب: القرآن، والحكمة: أي السنة؛ وهي شقيقة القرآن المفسرة له والموضحة له، **{ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ }**؛ من قبل نزول هذا القرآن وهذا الوحي العظيم كانوا في غاية الضلال، بل إن الأرض كلها طبّقها الضلال و خيم عليها الباطل في كل أرجائها وجميع أطرافها، فبعث الله عز وجل هذا الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام بهذا القرآن ليخلص البشرية وينقذهم من هذه الظلمات والجاهلية الجهلاء و الضلالة العمياء التي كانوا عليها، صلوات الله وسلامه وبركاته عليه " وعلى آله وأصحابه الهادين المهتدين " ذكر هذين الوصفين للصحب الكرام رضي الله عنهم؛ أنهم مهتدين أي في أنفسهم استقامة وطاعة لله عز وجل، هادين أي لغيرهم نصحا ودلالة و دعوة إلى الحق و الهدى، و كمال العبد إنما يكون بوجود العلم؛ تحقق العلم؛ أن يكون عالما بالحق عاملا به وأن يكون في الوقت نفسه معلما لغيره ناصحا، فبهذا يكون هاديا مهديا، و جُمع هذان الوصفان في دعوة عظيمة مأثورة ثابتة عن نبينا عليه الصلاة والسلام في حديث عمار ابن ياسر فيما كان يقوله عليه الصلاة والسلام في آخر الصلاة: " اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين ".

قال رحمه الله " فإن كتاب الله هو الهدى والنور وشفاء لما في الصدور " كما قال الله سبحانه و تعالى **{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ }**، فهذا القران فيه الهداية للبشرية، فهو كتاب الهداية و لا تنال الهداية إلا من طريق هذا القران لأن الله عز وجل أنزل القرآن ليهتدي العباد بهذا القرآن؛ **{ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ }**، وهو نور يستضيء المرء به و يهتدي بنوره و ضياءه في الظلمات؛ ظلمات الشرك ، ظلمات الضلال، ظلمات الهوى، ظلمات البدع، ظلمات المعاصي... فالقرآن نور و ضياء لصاحبه مثل ما مر معنا في الآيات الكريمة **{ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ}**

فهو نور يُهتدى به، أي في الظلمات، ولهذا لا نجاة للمرء من هلكة الظلمات إلا بهذا النور ؛ نور القرآن و ضياءه.

" وشفاء لما في الصدور " أي من أسقامها وأمراضها، وهي في الجمله نوعان: مرض الشبهات و مرض الشهوات.

- مرض الشبهات مرض يفسد على المرء العلم والهدى.
- والشهوات تفسد عليه السلوك و العمل والطاعة.

فهذا القرآن يشفي من هذه الأمراض، ومن أصيب بها أو بشيء منها فعليه أن يستشفي بالقرآن، و كثير من الناس لا يعرف من الاستشفاء بالقرآن إلا الرقية التي يرقي بها أو يرقى بها في بعض الأوقات، هذا هو من الاستشفاء بالقرآن عنده، والاستشفاء بالقرآن مقامه أعظم من هذا وأجلّ، الاستشفاء بالقرآن أن يداوي المرء أمراضه وأسقامه وعلله بهذا القرآن. القرآن ذكر الداء والدواء؛ الداء التي هي الذنوب والدواء الذي هو اللجوء إلى الله و الاستغفار والإنابة إليه سبحانه وتعالى والتوبة.

فيستشفي بالقرآن من العلل والأسقام التي تصاب بها القلوب و النفوس و الصدور فهو يشفي منها، ولا يمكن أن يشفى المرء منها إلا بمداواتها بالقرآن، فهو طبها النافع وعلاجها الناجع، فيتلو هذا القرآن حتى إذا كان به علة في جانب معين في آية من آيات القرآن مداواة لها يكرر الآية مرات، و يقرؤها قراءة متكررة متدبرا متأملاً يداوي بها نفسه ويستشفي بتلاوته لها.

" أودعه سبحانه وتعالى من بديع الحكم ما يغني عن حكمة كل حكيم " مهما أوتي الناس من الحكمة والإبداع في البيان فإن كل ما يؤتوه من ذلك ليس بشيء عند هذا الكتاب العظيم، و يكفي أن يعرف في هذا المقام أن هذا الكتاب وحيُ رب العالمين وتنزيله جل في علاه، و الفرق بين كلامه وكلام خلقه كالفرق بينه و بين خلقه سبحانه وتعالى، فكتابه ووحيه سبحانه وتعالى يغني عن حكمة كل حكيم.

" علمه سبحانه من اصطفاه من عباده " وهذا فيه أن تعلم القرآن وفهم القرآن منّة أيضا من منن الله سبحانه وتعالى على من شاء من عباده، ولهذا إذا رأيت في صدرك انشراحا لهذا القرآن قراءة وتعلما و تدبرا لمعانيه فاحمد الله على ذلك وسله المزيد سبحانه و تعالى.

" شرح به الصدور " و هذا أيضا من عوائد القرآن العظيمة و منافعه الجسيمة على العباد أن فيه شرح الصدور ، و شرح الصدر: اتساعه؛ اتساع الصدر، وهذا الاتساع يصحبه الارتياح و الاطمئنان والسكون؛ سكون النفس **{ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ }**.

" وبيّن به أحوال البعث والنشور " جاءت في القرآن مفصلة بيانًا للدار التي هي دار المآل، دار الرجعى، دار المصير، دار الجزاء، التي سيُنتقل إليها من هذه الدار الفانية، و في تلك الدار يجازى العباد على أعمالهم **{ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَىٰ }**.

" وجعله المعجزة الكبرى التي أوضح بها الدلالة " فهو معجزة في نفسه لأنه فوق قوى البشر و قدراتهم وطاقاتهم، ولو اجتمع البشر كلهم على أن يأتوا بسورة من مثله أو آية من مثله لكانوا من أعجز ما يكون عن ذلك وتحقيقه.

" وأقام به براهين التوحيد و الرسالة " ومن يقرأ القرآن يجد فيه من تنوّع البراهين والدلائل ما يحقق هذا المطلب العظيم ويحقق الكفاية فيه ويقيم الحجة ويزيل المعذرة فلا يبقى لأحد عذر مع حجج القرآن وبيناته العظيمة.

قال " وأقام به براهين التوحيد والرسالة وما يجب له سبحانه من صفات الكمال والجلال والجمال " ولا تكاد تقرأ سورة من سور القرآن بل آية من آياته إلا وتجد فيها التعريف بالرب العظيم بذكر صفاته العظيمة ونعوته الجليلة وأسمائه الحسنى سبحانه وتعالى.

قال " وما يستحيل عليه من الصاحبة والولد وكل نقص و محال " لأن هذا الباب؛ باب الأسماء و الصفات يدور على هذين الأمرين؛ الإثبات و النفي على حد قول الله تعالى { **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** }؛ إثبات ما أثبته الله لنفسه وما أثبته له رسوله عليه الصلاة والسلام ونفي ما نفاه الله عن نفسه وما نفاه عنه رسوله صلوات الله وبركاته عليه.

" وذكّر به و حذّر، وبشّر به و أنذر بأحوال الأمم السالفة، وأن العاقبة للمتقين والدائرة على الظالمين " وهذا أيضا باب واسع جدا في القرآن، وأنت تتلو كتاب الله سبحانه وتعالى تجد فيه تنوع البيان في هذا الباب؛ باب الذكرى، باب التحذير، باب البشارة، باب الترغيب والترهيب. بل القرآن قائم على ذلك؛ البشارة والنذارة، الترغيب والترهيب، الرجاء والخوف، وهذا يكون ببيان عقوبات الأمم الظالمة والعواقب الحميدة التي جعلها الله سبحانه وتعالى للأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه وأتباعِهم.

قال " وغير ذلك مما لا يحيط بعلمه إلا منزّله الحكيم " أي أن علوم القرآن علوم واسعة ومتنوعة من التوحيد والصفات؛ صفات الله ونعوته وجلاله وكماله وعظمته سبحانه وتعالى وأخبار الأمم الماضية والترغيب والترهيب وأيضاً الأوامر والنواهي والقصص والأخبار، تنوعت علوم القرآن، " والله أعلم بما ينزل، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. ".

[أحسن الله إليكم.

قال المصنف رحمه الله تعالى:

" وقد وقفت على كتاب الفقيه البارع المحقق عبد الرحمن بن أحمد ابن رجب الحنبلي رحمه الله تعالى الذي أسماه " الاستغناء بالقرآن في تحصيل العلم والإيمان " فوجدته كتاباً جامعًا وسفرًا نافعًا، فجردت مقاصده في هذه الفصول

الثمانية المشتملة على بضع وأربعين حديثًا صحيحة وحسنة منسوبة إلى من عزى تخريجها إليه من الأئمة وهي هذه:

١ – فصلٌ في ذكر أن العلم كله في القرآن.

٢ – فصل في أن القرآن اشتمل على ما لم يشتمل عليه غيره من كتب الله السالفة.

٣ – فصل في ذكر النهي عن التشاغل عن القرآن بغيره من القصص والأخبار وغيرهما مما لا يعين على فهمه.

٤ – فصل في ذكر النهي عن أن يضرب كتاب الله بعضه ببعض.

٥ – فصل في ذكر النهي عن معارضة السنة بما يفهم من ظاهر القرآن كما يفعله أهل الزيغ والطغيان.

٦ – فصل في ذكر النهي عن تفسير القرآن لمجرد الرأي والظن من غير استنادٍ الى حجة.

٧ – فصل في ذكر أن أهل القرآن أفضل العمال وأن الاشتغال به أفضل الأعمال.

٨ – فصل في ذكر تحسين الصوت بالقرآن وتأثير القرآن في قلب من أصغى إليه بقلبٍ سليم.

وفي ضمنها من تفسير لغتها الغريبة ومعانيها المشكلة والاستشهاد بآيات من كتاب الله وآثارٍ عن السلف جملةٌ صالحة، جعل الله ذلك خالصًا لوجهه الكريم ومقرّبًا من جنات النعيم. "]

شرح الشيخ :

أشير أولًا إلى نصيحة تتعلق بما سبق، للإمام ابن باز رحمة الله عليه، يقول " فالواجب على أهل الإسلام العناية بهذا الكتاب العظيم وحفظه والمذاكرة فيه وتدبّر معانيه ونقل ألفاظه ومعانيه للناس كما أُنزل، لأن فيه الهدى والنور، فيه الدلالة على كل خير، فيه الدعوة إلى كل ما ينفع العباد والبلاد، وفيه الترهيب من كل سوء "

أشار المختصِر هنا أن وقف على كتاب الاستغناء بالقرآن في تحصيل العلم والإيمان للحافظ عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي رحمه الله تعالى، ورأى فيه من جمال الجمع في هذا الباب وعظم النفع ما جعله يقبل على تجريده؛ أي اختصاره، فجرد مقاصده في فصولٍ ثمانية؛ قال " اشتملت على بضع وأربعين حديثاً صحيحة وحسنة "؛ هذا في الجملة لكن سيأتي أن بعض الأحاديث التي ذكرها لا تصح، ويأتي التنبيه عليها في موطنها.

ثم ذكر هذه الفصول الثمانية، وكلها تندرج في هذا المقصد؛ مقصد الكتاب وهو الاستغناء بالقرآن العظيم.

وذكر رحمه الله انه اعتنى ببيان لغتها ومعانيها المشكلة والاستشهاد بآياتها؛ بالآيات من كتاب الله والآثار من السلف.

ويظهر والله أعلم أن هذا كله من التجريد؛ يعني من التجريد للأصل، يعني الذي هو للحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى، ولو كان الأصل موجوداً لاستطاع الإنسان إن يجزم بالمقارنة، لكن في الغالب أن الكتاب كله تجريد للأصل الذي هو كتاب ابن رجب رحمه الله.

نعم...

[قال المصنف رحمه الله تعالى:

" فصلٌ في أن العلم كله في القرآن:

وفيه أربعة أحاديث:

* الأول: عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال " ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ما بين الدَّفَتين. " رواه البخاري. "]

شرح الشيخ :

قال رحمه الله " فصلٌ في ذكر أن العلم كله في القرآن " العلم أي الذي به سعادة العباد وفلاحهم وهدايتهم وصلاح أمورهم ونجاتهم من سخط الله عز وجل وفوزهم برضوانه جلّ في علاه كله في القرآن، فجاء القرآن تبياناً لكل شيء، جامعا وافيا فيه الغُنيةُ والكفاية وفيه الهداية والفلاح، والله سبحانه وتعالى أنزله وافيًا جامعًا لتسعد البشرية بهذا القرآن فلا تشقى؛ **{ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ }**؛ قال ابن عباس " تكفل الله عز وجل لمن عمل بهذا القرآن أن لا يضل ولا يشقى "، فهذا القرآن فيه العلم كله، أي العلم الذي فيه فلاح العباد وصلاحهم ونجاتهم وفوزهم برضوان الله سبحانه وتعالى.

ذكر في هذا الفصل أحاديث بدأها بما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال " ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ما بين الدفتين " والمراد بالدفتين أي جلدتي المصحف، " إلا ما بين الدفتين " أي المراد ما بين الدفتين أي جلدت، فالمراد المصحف، الذي بين الجلدتين.

والمراد بقوله هذا رضي الله عنه أي أن النبي صلى الله عليه وسلم ما ترك مالا ولا شيئا يورث من دارٍ أو عبيد ومماليك أو مزارع وأموال، أو غير ذلك ما ترك شيئا من ذلك، ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ما بين

الدفتين أي إلا هذا المصحف، فما ترك شيئا يورث من أمور الدنيا، إنما ورّث الأمة هذا القرآن، ورث الأمة هذا القرآن فهو ميراث النبي فهو ميراث النبي عليه الصلاة والسلام.

ولهذا يؤثر أن ابن مسعود كان جالسا في المسجد وفي المسجد نفر يقرؤون القرآن ويتدارسونه فأتاه رجل فسأله قال " ما يصنع هؤلاء ؟ " قال: " يقتسمون ميراث النبي صلى الله عليه وسلم "؛ يقتسمون ميراث النبي صلى الله عليه وسلم، فالنبي عليه الصلاة والسلام لم يُورّث دينارا ولا درهما، ما ترك دينارا ولا درهمًا، وإنما ترك ما بين الدفتين، أي ترك هذا المصحف.

والسنة تابعة له؛ تابعة لهذا القرآن، ولهذا لا يقال أنه لم يذكر السنة لأن السنة تابعة للقرآن، مفسرة له ومبينة وموضحة، ومن لم يؤمن بالسنة لا يؤمن بالقرآن والله جل وعلا قال في القران **{ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ۚ }** **{ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ }** أي السنة، **{ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ }** أي السنة، فمن لم يؤمن بها لا يؤمن بالقرآن ومن لم يقم السنة لم يقم القرآن.

فالحاصل أن النبي عليه الصلاة والسلام لم يوّرث دينارا ولا درهما وإنما وَرَّث هذا القرآن، هذا معنى ما قاله رضي الله عنه " ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ما بين الدّفتين " أي لم يترك إلا هذا القرآن، هذا هو الميراث، وقد قال الله تعالى **{ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ }**.

فالقرآن هو الميراث، القرآن هو الميراث الحقيقي الذي تركه النبي عليه الصلاة والسلام لأمته، ما ترك رسول الله عليه وسلم للأمة إلا ما بين الدفتين، إلا هذا القران. فهذا فيه شاهد للباب أن القرآن فيه العلم كله.

نعم...

[أحسن الله إليكم.

قال المصنف رحمه الله تعالى:

" الثاني: عن أبي جُحَيفة – بضم الجيم وفتح الحاء مهملة – رضي الله عنه قال: " سألنا عليّا رضي الله عنه هل عندكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء بعد القرآن ؟ قال: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إلا فهم رجل يؤتيه الله عز وجل رجلا في القرآن. ". والحديث رواه أحمد والبخاري "]

شرح الشيخ :

ثم أورد رحمه الله هذا الحديث عن أبي جحيفة، قال " بضم الجيم وفتح الحاء المهملة " وهو وهب بن عبد الله السُّوائي رضي الله عنه، وهو صحابي صغير، فهذا الحديث هو من رواية الصحابي عن صحابي؛ أبي جحيفة عن علي رضي الله عنه، قال " سألنا عليّا رضي الله عنه؛ هل عندكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء بعد القرآن " هل عندكم؛ قال وهو يخاطب علي رضي الله عنه: " هل عندكم " إما أن يكون أراد بقوله هل عندكم أي التعظيم لعلي بهذا الخطاب، يحتمل. ويحتمل أمرا آخر أنه أراد " هل عندكم ؟ " أي يا آل البيت؛ آي بيت النبي عليه الصلاة والسلام.

وهذا السؤال الذي سأله أبو جحيفة عليًّا تكرر من غير واحد، ولهذا جاء عند النّسائي أن قيس ابن عباد وكذلك الأشتر النخعي، سألوا عليًّا رضي الله عنه هذا السؤال؛ تكرر هذا السؤال على علي، هذا يفيد أن هذا السؤال تكرر على عليٍّ رضي الله عنه، هذا التكرار لهذا السؤال على علي يفيد أن ثمت أمر دفعهم إلى هذا السؤال.

وذكر بعض الشراح أنه إنما سأله عن ذلك لأن جماعة من الذين يدّعون أنهم شيعة له رضي الله عنه وأرضاه كانوا يزعمون أن عند أهل البيت لا سيما عليّ رضي الله عنه أشياء من الوحي خصهم النبي صلى الله عليه وسلم بها، فلما ادعوا هذه الدعوة سُئِل المعنيّ بهذا الأمر وهو علي رضي الله عنه: هل خصكم النبي صلى الله عليه وسلم بشيء ؟؛ أي لم يُطلع عليه غيركم؛ هل خصكم بشيء من ذلك ؟ فنفى عليّ ذلك وأقسم بالله، رضي الله عنه وأرضاه، قال لا، ما خصّنا دون غيرنا بشيء أي من الوحي أخبرنا به ولم يخبر غيرنا به، هذا لم يحصل؛ قال " لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة " لم يحصل شيء من ذلك، يقسم علي رضي الله عنه أنه لم يحصل شيء من ذلك.

قال " إلا فهمٌ يؤتيه الله عز وجل رجلا في القرآن " يَمنّ الله سبحانه وتعالى عليه.

فمن أعطاه الله فهما في كتابه بحيث أحسن التدبر للقرآن وأحسن الاستنباط لمعاني القرآن تحصل له الزيادة بهذا الاعتبار، هل أوتيتم شيء ؟ " هل عندكم شيء ؟ " قال " لا.. إلا فهم يؤتيه الله من يشاء من عباده "، وهذا فيه تنبيه إلى أن فهم القرآن نعمة عظيمة يمنّ بها الله سبحانه وتعالى على من يشاء من عباده ويفتح سبحانه وتعالى على من يشاء من عباده، ولا يأتي هذا الفهم من فراغ، لا يأتي إلا من عنايةٍ بالعلم نفسه وعناية بالقرآن وبالعناية أيضًا بالطريقة المثلى الصحيحة لبيان القرآن وتفسيره، لأن فهم القرآن ينبني على الزكاء والتّقوى والهداية والتعظيم للقرآن والعناية بكتب الأئمة وأهل العلم وأقاويل السلف والصحابة والتابعين حتى يكون الفهم الذي يؤتاه المرء فهماً صحيحاً، وإلا اذا دخل في فهم القرآن بلا علم ولا استنادًا لكلام أهل العلم يأتي بالعجائب والغرائب التي ينسبها إلى كتاب الله ويدّعي أنها مفهومة من القرآن. وكم من التأويلات الباطلة والفهوم المعوّجة حصلت بسبب ذلك؛ بسبب اعتداد الإنسان برأيه أو فكره أو فهمه معرضًا عن كلام أئمة السلف رحمهم الله تعالى، فيأتي بالعجائب والغرائب ويظن أنها من الفهم الذي أوتيه في كتاب الله عز وجل.

يقول الإمام ابن القيم في كتابه مدارج السالكين " الفهم نعمة من الله على عبده ونور يقذفه الله في قلبه يعرف به ويدرك ما لا يدرك غيره ولا يعرفه، فيفهم من النص ما لا يفهمه غيره مع استوائهما في حفظه وفهم أصل معناه، فالفهم عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم عنوان الصديقية ومنشور الولاية النبوية، وفيه تفاوت مراتب العلماء حتى عُدَّ ألفٌ بواحد "

" حتى عُدَّ ألفٌ بواحد " أي بما آتاه الله سبحانه وتعالى من حسن الفهم للقران العظيم.

وهنا أيضا انقل وصية الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في هذا الباب لابد أن ننتبه لها حتى لا يقع الأنسان في الزلل والجنوح في هذا الباب، يقول رحمه الله " وإنّي أكرر الوصية لإخواني طلاب العلم أن يعتنوا بفهم القرآن وأن يراجعوا عليه كلام العلماء في تفسيرهم، العلماء الموثوق بهم " يعني لا يركن إلى فهمه فقط بل يراجع عليه كلام العلماء، لأنه إن لم يراجع كلام العلماء ربما زلت به القدم أو جنح به الفهم، ولهذا من الخطأ الفادح أن يقال للإنسان: اكتف بالفهم ولا تراجع كلام الأئمة وكلام المفسرين. لأنه بهذه الطريقة يُفصَل المرء عن حسن الفهم ويُبعَد عن حسن الفهم للقرآن العظيم ويوقَع في مجالات الزلل والقول على الله سبحانه وتعالى وفي كتابه بلا علم، فيجني على نفسه بما يحسبه ويظنه فهمًا للقرآن.

ولهذا ينبغي أن يكون المرء قريبا جدا في فهم القرآن من كتب التفسير الموثوقة كما أوصى بذلك الإمام ابن عثيمين رحمه الله وغيره من أهل العلم رحمهم الله تعالى. نعم...

[قال المصنف رحمه الله تعالى:

" قال العلماء: والمعنى أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يترك بعده سوى القرآن، فأما السنة فهي مفسرة له وموضحةٌ مرادَه.

ولهذا قال الإمام الشافعي رحمه الله « كل ما حكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو مما فهمه من القرآن »،

وكان ابن مسعود رضي لله عنه يقول " إذا حدثكم بحديث أنبأتُكم بمصداق ذلك من كتاب الله تعالى "

وقال سعيد بن جبير رحمه لله " قلّما بلغني حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وجدت مصداقه في كتاب الله تعالى ".

فتبين بهذا أن العلم كله في القرآن، وإنما السنة شارحة له. "]

شرح الشيخ :

هنا لما ذكر الحديثين؛ حديث ابن عباس والحديث الذي بعده ذكر المعنى المستفاد من هذين الحديثين: أن النبي عليه الصلاة والسلام لم يترك بعده سوى القرآن، فهذا يفيد أن العلم كله في القرآن.

قال " فأما السنة فهي مفسرة له وموضّحةٌ مراده " فالسنة شقيقة القرآن وتفسر القرآن وتشرح مراد القرآن، ولهذا ذكر العلماء في تفسير القرآن أن الطريقة المثلى في تفسيره أن يفسر القرآن بالقرآن، فإن لم يتيسر له ذلك لم يحصل ذلك فيرجع إلى السنة لأن السنّة شارحة للقرآن ومفسرة لمعانيه.

" قال الشافعي: كل ما حكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو مما فهمه من القرآن " فهذا يؤكد هذا المعنى الذي سبق.

" وكان ابن مسعود يقول: إذا حدثتكم بحديث أنبأتكم بمصداق ذلك من كتاب الله " فكل ما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ما يصدقه ويشهد له من كتاب الله سبحانه وتعالى، وهذا الذي أشار إليه ابن مسعود يذكر سعيد ابن جبير في الأثر الذي نقله المصنف أنه يقول قلّما بلغني حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وجدت مصداقه في كتاب الله؛ يعني كان رحمه الله كلما بلغه حديث ينظر في القرآن في شاهده ودليله وما يصدّقه من كتاب لله، لأن كل ما حكم به عليه الصلاة والسلام، كما قال الإمام الشافعي، كل ما حكم به عليه الصلاة والسلام فهو مما فهمه من القرآن، فإذاً كل الأحاديث الصحيحة الثابتة عنه في القرآن ما يصدقها.

وجاء في بعض الروايات لخبر سعيد بن جبير يوضح ماذا صنع رحمه الله؛ يقول "كنت لا أسمع بحديث عن رسول الله صلى لله عليه وسلم على وجهه إلا وجدتُ مصداقه في القرآن، فبلغني أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: " لا يسمع بي أحد من هذه الأمّة ولا يهودي ولا نصرانيّ ثم لا يؤمن بما أرسلت به إلا دخل النار "، فجعلت أقول: أين مصداق هذا من القرآن ؟ حتى أتيت على هذه الآية؛ قول الله سبحانه وتعالى { أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ } إلى قوله جل وعلا { وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ۚ } " { وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ۚ }؛ هذا مصداق لقوله عليه الصلاة والسلام " والذي نفسي بيده لا يسمع بي يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بالذي جئت به إلا كان حقا على الله أن يدخله النار " قال { وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ۚ } قال: " فالأحزاب الملل كلها. " الأحزاب الملل كلها.

ختم رحمه الله هذا التقرير بقوله " فتبين بهذا أن العلم كله في القرآن، وإنما السنة شارحة له. "، والسنة كما ذكر رحمه الله شارحة للقرآن وهي أيضا في نفس الأمر وحي من الله، لكن القرآن وحيٌ متعبد بتلاوته وهو كلام الله ولفظه، والسنة وحيٌ من الله تعالى وهي شقيقة القرآن وحقها أن تُعظّم وأن يعتنى بها العناية العظيمة.

والله تعالى أعلم. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.